الإسلام في موكب الإصلاح :

هذه المخازي ...!

للأستاذ محمد عبد الله السمان

قال محدثي : « إنكم يامعشر الكتاب الإسلاميين تتصايحون في واد ، وتنفخون في رماد ، وتجهدون أنفسكم ، وترهقون أقلامكم في غير فائدة ، فأنتم تريدون الإصلاح بأداة ينقصها الإصلاح ، وترغبون في السبق برأحلة عرجاء ... تصرون على أن يتزعم الإسلام كل نهضة ، ويتقدم كل وثبة ، والإسلام لم يزل خليطا من الشوائب التي تسيء إليه ، ومزيجا من الفضائح التي تحط من قدره . . !

« ماهذه الطرق الصوفية البلهاء التي لازالت تغزو مصر : كفورها وقراها ومدنها ، حتى العاصمتين لاتتنازل عنهما : وتأبى أن ترحمها . إنها دولة داخل الدولة ، عدتها الجهل المطبق ، وسلاحها الغباء الفاضح ، ووسيلتها الدجل والشعوذة ، ورعاياها السذج المتفلون ، وولاة أمورها المرتزقة التلاعبون . أليس من العار أن تقوم هذه الدولة المزعومة باسم الإسلام لتنشر بين المسلمين الجهل ، وتحوطه بسياج من الدجل ، وتذود عنه بقوة من الحق ؟ أليس من العار أن تسيطر هذه الدولة المزعومة في مصر على الألوف المؤلفة من المسلمين الجهلة ، لتهب لهم إسلاما ممسوخا ، ودينا زائفا ، ولتجعل منهم آلات لاتفهم الإسلام إلا ركعات وسجدات يؤدونها ، وشهرا يصومونه ، وأورادا يداومون على تلاوتها ، ولايفهمون الدين إلا انقيادا أعمى للسادة المربين ، والأخيار العارفين ، ممن نصبتهم هذه الدولة المزعومة هداة مربين وهم أضل من الضلال ، وأجهل من الجهل ، وأضفت عليهم ألوانا من الألقاب ليكونوا في نظر قطعان الماشية ذانا مصونة يجب أن تقدس ، وملتمس بركة يجب أن يتقدم إليه ! ؟

أليس من العار أن تضم هذه الدولة المزعومة بين جناحيها جيشا جرارا من البطالة باسم الإسلام ، لايحترف إلا اصطناع اللحية ، وإتقان العمامة ، وتحريك السبحة ، ولا يمتهن إلا التسول في الموالد ، والتسكع حول الأضرحة ، والمزاحمة على حثالة النذور ، وفتات الصدقات . ولا يرجو من الحياة إلا مسجدا يضمه سحابة النهار ، وفريرا يؤويه جنح الليل ، وجلبابا مرقعا يتوارى فيه ، ويستعين به على مفاجآت الجو وتقلباته ؟

. . أليس من العار أن تظل هذه الدولة المزعومة تشغل حيزا كبيرا من الفراغ ، وتسيطر على قدر وافر من الرأي العام لتشله وتعطله ، وتحوله عن مهام الأمور التي تتعلق بكرامة وطنه وبلاده ، وتزرع في نفوسه عقيدة التخاذل والاستسلام والتواكل ، فتفهمه أن استعمار الوطن الإسلامي قضاء محتوم من الله ، والاعتراض عليه كفر ، والتبرم به إلحاد ، والنفور منه زندقة ؛ وتقنعه بأن جور الحكومات إرادة مقدسة من الله ، ومناهضتها لؤم ، ومكافحته تمرد ، ومناوشته تنطع وحمق ؟

. . ثم ماهذه الأضرحة التي أضحت كعبة يحج إليها الجهلة من أطراف القطر ، يطوفون حولها ، ويتمسحون بنحاسها وقاشها ، ويتوسلون بها في شفاء مرضاهم ، وقضاء حوائجهم ، ودفع الضرر عنهم ، وسوق الرزق إليهم ، وتنزح إليها من كل فج جحافل النساء من البله ، لتزويج العانس ، وتزف البكر ، وتلد العقيم ، وتحل عقدة البائس ، وتفرج كربة المنكوبة ، وترد لوعة المهوفة ؟

لقد أصبحت هذه الأضرحة مسرحا للجهل بأجلى معانيه ، ومصنعا للخرافات التي لامثيل لها إلا في عالم الأساطير ، ومعهدا لتكييف أساليب الدجل حتى يخدع العقول ، وتكييف أساليب الشعوذة حتى تضلل العقائد ؛ فهذا الضريح ساكنته من الأربعة المتصرفين في مصاير الناس ، المسيطرين على ركب الحياة ؛ وذاك الضريح ساكنته هي صاحبة الشورى ، إليها ترجع الأمور كلها ، ومنها تصدر الأوامر جميعها ؛ وضريح العارف بالله هذا متخصص في شفاء الأمراض المستعصية ، والأدواء المزمنة ، وترابه دواء للأعين الرمد ، وعلاج للأجساد البرص ؛ وضريح ولي الله ذاك ، متخصص في جلب الأرزاق ودفع الأضرار ، وتحصين الأطفال من الأوجاع والأسقام ، والأرق والسهاد . . !

ثم ماهذه الموالد الصاخبة التي يتبع بعضها بعضا ، ويطن

عنها فى الجرائد ويدعى لها فى الأسواق ، وتتفضل وزارة الشؤون بالتصريح لها ، وتتكرم وزارة الداخلية بالمحافظة على الأمن والنظام خلال أيامها ، ويحرص قسم الوعظ والإرشاد على استغلالها ، ليعظ أقواما حصنوا بالجهل ، ويرشدهم الا حقنوا بمصل الخرافات ، ويصحح عقائد حمق ، اللجوء إلى الأضرحة أقدس عندهم من التوجه إلى الله ، والتمسكم حولها أخف لديهم من السعى فى الأرض ؟

ماهذه الموالد الصاخبة التى يظل الواحد منها بضعة عشر يوما من مشرق الشمس إلى مطلع الفجر ، لاتسمع غير دق الطبول ، ونهيق المزامير ، وصياح الدراويش ، وغوغاء المهرجين ، ولا ترى غير أكداس مكدسة من الأفاكين المحتالين ، وحلقات للحواة المشعوذين ، وعصابات من أرباب الجرائم المختبئين داخل جلاليب من الرقاع المزركشة ، والتوارين وراء العمائم الضخام ، واللحى المتدلية ، والسبح المتشققة ، والأعين المكتحلة ، والحواجب المزججة ، والعبارات المسجوعة التى ينخدع بها سمع الجاهل ، وتنجذب إليها أذن الأبله ، والألفاظ النامضة التى تثير تطفل الفارغين ، وتبلبل أفكار الأغبياء الساذجين ، ولا تسمع غير صخب يقلق الأسماع ، ويمكر الهدوء ، وصيحات الذاكرين الذين يحترفون ذكر الله بهز الأبدان ، ورقصات الأكتاف ، وانتفاضات الرؤوس ، لايشغلهم عنه الصلوات المكتوبة ، ولا الأقوات المطلوبة ، ولا تكاليف الحياة التى لايهرب منها سوى الضائع المهمل ، والكسول المتواكل . . ؟

لم هذه المخازى كلها اليوم ؟ فإذا كانت من قبل ضرورة يقتضى بقاءها رغبة الاستعمار حتى يضمن غفلة الشعب ، ورغبة الملك الطريد حتى يظل فى أمن من يقظته ، ورغبة الحكومات الجائرة حتى ترغمه على الذلة ، وتفرض عليه الصمت والسكنة ، فأى معنى لبقاء هذه المخازى إلى اليوم لتكون وصمات عار فى جبين الإسلام ، وصفحات خزى فى تاريخ الشعب المسلم ، ونحن فى عهد جديد يتعقب الاستعمار حتى يرحل إلى غير رجعة ، ويضيق عليه حتى يتقلص ظله فيؤثر الانتحار على الحياة والجلاء على الاحتلال ، وفى ظلال وثبة مباركة تتطلب فى الشعب يقظة تسندها ، وتؤيدها من الرأى العام صحوة تؤازرها وتباركها ، ومن أين للشعب هذه اليقظة ، وللرأى العام هذه الصحوة ، وأحد جوانب الشعب معطل لاخير فيه ، وأحد أركان الرأى العام خائر لافائدة منه ؟ من أين لهما هذه الكلمة وتلك ، وهذه المخازى مازالت صامدة صمود الجبال أمام عواصف العهد الجديد ، وموجات الوثبة المباركة ؟ ومن أين الاسلام أن يقود النهضات ، وأن يسيطر على مواكب الإصلاح ، إذا كانت هذه المخازى لازالت دولتها تقوم داخل الدولة باسم الإسلام ، على رغم من استغاثته منها ، والتبرؤ من فضائحها ، وعلى رغم من صيحات المصلين من علماء الدين المعقولين ، والمثقفين من الأغيار المسلمين ... !

فهلا كان الأجدر بكم أن تخلصوا الإسلام مما علق به من شوائب وتنظفوه مما ألصق به من أضاليل ، حتى إذا تقدمتم للاصلاح كانت أداتكم نظيفة سليمة ، وإذا رغبتم فى السبق كانت راحلتكم قوية صحيحة ؟ — أما إذا أصررتم على أن تتقدموا للاصلاح بأداة ينقصها الإصلاح ، وللسبق براحلة عرجاء ، فثقوا بأنكم ستظلون إلى الأبد تتصايحون فى واد ، وتنفخون فى رماد ... !! »

لقد ظللت خلال الحديث منكس الرأس غاض الطرف ، وعبارات محدثى تصل إلى قلبى شعاعات من النيرة الممتزجة بالحسرة والألم ، ولم أشأ أن أقاطعه أو أجادله ، فلئن كنت أملك اللسان الذى أقاطع به حديثه ، فلم أكن أملك الحجة التى أجادل بها نقده ، وأعارض بها رأيه ، ولذلك آثرت الصمت والهدوء والإصغاء ، واكتفيت فى النهاية بأن رفعت طرفى إلى محدثى ... أن نعم !

محمد عبد الله السمان

الروايـــة

مجلة القصص الرفيع

تظهر فى أول كل شهر وفى منتصفه

الاشتراك السنوى ١٠٠ قرش فى مصر والسودان ،

١٥٠ قرشا فى الممالك الأخرى